

المقدسي وجغرافيته سوريت

في القرن العاشر للميلاد

المقدسي من افضل كتبة الجغرافية بين قدماء العرب فننخذه كمال يوقفنا على ما بلغه اولئك الائمة من الكمال في هذا الفن واخص ما نطلبه منه المعلومات التي اثبتنا في كتابه عن سوريت ووطنه كما عرفها في زمانه اعني في القرن العاشر للمسيح . وهذا ما حدا بنا الى ايراد مقالة خاصة للنظر في تأليفه

١

المقدسي وتأليفه

ليس المقدسي اول من تولّى وصف الشام لكنّه يفوق على من تقدّمه بوفرة معلوماته وبحسن أسلوبه . والحق يقال انه تحرّى في عمله طريقة نظامية تجعل تأليفه في مقام رفيع

ولد شمس الدين ابو عبدالله محمّد بن احمد بن الي بكر البناء نحو السنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) في القدس الشريف فدعي لذلك بالمقدسي وهو الاسم الذي ندعوه به باختصاراً في ما يأتي . وكان جدّه مهندساً بارعاً في الشام وهو الذي ابنتى ميناء عكا كما افادنا حفيده اذ قال فيه (ص ١٦٢ و ١٦٣) :

« لم تكن (عكا) على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون (طولون) وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الخائط على مينائها فاحب ان يتخذ لمكا مثل ذلك الميناء فجمع صنّاع الكورة وعرض عليهم ذلك فقالوا : لا جتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان . ثم ذكر له جدنا ابو بكر البناء وقيل : ان كان عند احد علم هذا فعنده . فكذب الى صاحبه على بيت المقدس ان ينهض اليه . فلما صار اليه وذكر له ذلك قال : هذا امر هين عليّ بفلق الحمير الفليضة . فصفا على وجه الماء بقدر الحصن البري وخيط بعضها ببعض وجعل لها باباً من الغرب عظيمًا ثم بنى عليها

بالحجارة والشيد وجعل كلاً بنى خمس دوايس ربطها بأعمدة غلاظ إشتد البناء. وجعلت القلق كلاً ثقلت تركت حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى اخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك كلاً بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخطه به. ثم جعل على الباب قطرة فالمرآب في كل ليلة تدخل المبناء وتجر السائلة مثل صور»

تعاطى المقدسي في أول امره التجارة وتجمّم لذلك اسفاراً أعدته للدروس الجغرافية. وكان يشعر في قلبه ميلاً عظيماً الى معرفة البلدان ولم يزل يقوى فيه ميله الى أن انقطع الى ذلك الفن بتمامه فطاف كل بلاد الاسلام اللهم إلا السند والاندلس. ثم باشر نحو السنة ٩٨٥ تصنيف كتابه فبلغه كماله بعد ثلاث سنوات. أما سنة وفاته فلا تزال مجهولة وكذلك تفاصيل ترجمته لا نعلم منها إلا القليل مما اثبتته عن نفسه في مطاوي كتابه الذي دعاه احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم

ومن البديهي أن الكاتب أحكم القسم المختص ببلاد الشام مسقط رأسه فتوسّع فيه. لكن تأليفه كله يستحق الثناء قال المستشرق غلدميستر (Gildemeister) « أن المقدسي قد امتاز بين بقية ارباب اوصاف البلدان بكثرة ملحوظاته وسعة نظره (١) ». وقال سپرنغر (Sprenger): « ليس من سائح تجوّل في البلاد كما تجوّل المقدسي ولا احد لحظ لحظة او روى معلوماته مثله بنظام وترتيب ». وكذلك العلامة بريبه دي مينار (B. de Meynard) يعدّ تأليفه ذا قيمة لا تُقدّر (٢). وكل هذه الاقوال عين الصواب. أما حسن الاسلوب فله المقام الأول فيه بين رصفائه السابقين والذين اتوا بعده لم يبلغوا شأوه بل زادوا تقهقراً. ومن تصفح كتاب المقدسي استحسن طريقته في الكتابة فانك لا تراه يضيف الى عممه الاضافات النافلة والاستطرادات الزائدة كما يفعل ابن رسته وابن الفقيه وكذلك لم يدخل في اوصافه تعداد المراحل او مبالغ الخراج على طريقة مملة شأن ابن خرداذبه في تأليفه. هذا فضلاً عن حسن نظر واصالة رأي مع ما يبدي لوطنه من الحب الواجب دون ان يبغض حقوق بقية البلاد

(١) في المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV, VII, p. 143)

(٢) اطاب المجلة الاسيوية (JA, 1879², 271) وكتاب بروكلمان في آداب العرب (Brockelmann: Gesch. d. arab. Litter., I, 230) ولا سيما مقدمة الدكتور دي غوي

ومما يستحبه القارئ فوق ذلك في مطالعة تأليف المقدسي حرصه على سياق الاخبار وتنسيق الاوصاف فترى الابواب متواصلة على احسن طريقة واضبط اسلوب لا يفارقه همه في النظام وترتيب المواد على خلاف ما ترى في كتب من تقدمه . مثال ذلك انه في كلامه عن كورة قنسرين جعل قصبتها حلب . وقد احس بان القارئ يعتز عليه في ذلك فسبق بالرد على اعتراضه بما حرقه (ص ١٥٦) :

« فان قال قائل : لم جعلت قصبة الكورة حلب وهما مدينة على اسمها . قيل له : قد قلنا ان مثل القصبات كالقواد والمدن كالجند ولا يجوز ان تجعل حلب على جلالها وحلول السلطان بها وجميع الدواوين اليها وانطاكية ونفاسها وبالس وعمارتها اجناداً للمدينة خربة صغيرة . فان قال : هلاً استعملت هذا القياس في شيراز فاضفت اليها اصطخر ومدنها . قيل : لما وجدنا باصطخر مدناً احدثت بها وتباعدت عنها استحسننا ما فعلناه ثم والاستحسان في علمنا هذا ربما غلب القياس

وهي لعمرى خطة محمودة أن لا يصف الكاتب الا ما رآه عياناً وعليها جرى المقدسي فزاد في اعتبارنا مقاماً . وكذلك تراه ينه القارئ اذا ما احتاج الى وصف شي . لم يعاينه . مثال ذلك قوله (ص ١٢) عن اليمن : « امأ طريق اليمن فلا اكاد اضبط مراحلها كغيرها من الكور غير اني اذكر ما عرفت واجمل ما سمعت »

امأ طبعة هذا الكتاب فحسبنا القول بان الذي تولى امرها انما هو احد افاضل المستشرقين العلامة دي غوي . وكان طبعتها اوّلاً سنة ١٨٧٧ ثم نفذت هذه الطبعة بعد مدة فاضطرّ جناب ناشرها الى اعادة طبعتها فانجز العمل في السنة المنصرمة . وفي ذلك دليل واضح على اقبال العلماء على هذا الكتاب وقلما تجد كتاباً علمياً عربياً يحتاج الى طبعتين . ومن محاسن هذه الطبعة المستحدثة ان صاحبها اثبت فيها عدّة فوائد جديدة استفادها من درسه الخاص ومن ملحوظات العلماء فجاءت هذه الطبعة الثانية غاية في الحسن سواء كان لضبط المتن (١) او لدقّة الحواشي التي علّقها في ذيل كل صفحة من الكتاب . فيا ليت ادباء الشرق يحذون في طبعتهم للتأليف القديمة حذو المستشرقين في طبعتهم فيخدموا العلم كما فعل ناشر جغرافية المقدسي

ولكن دعنا الآن نواصل بحثنا في التأليف الذي نحن بصدد

(١) قد ضبط جناب الدكتور اسم سَلَحِيّة بلدة شرقي حمص بتشديد الباء المثناة وعندنا ان الصواب كتابتها بنخفيف الباء كما هو شائع في تلك الجهة